بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، وجاء هذا الجزء في بابين عالجت في الباب الأول بعض ملامح تاريخ اوربا في العصور الوسطى بما يخدم غرض موسوعتنا ، والدافع إلى كتابة هذا الباب هو التعرف إلى أصول الفرنجة الذين تحملوا أعباء مشروع الحروب الصليبية ، فلطالما وجهت التهمة من قبل المؤرخين المعاصرين إلى العرب بتقصيرهم في هذا المنحى ، حيث ما من واحد من المؤرخين الأوائل الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية جشم نفسه عناء السؤال : من هم الفرنجة ، ومن اي أصل انحدروا ، وما هي عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ومؤسساتهم ، ولأي شيء قدموا من اوربا ،إلى غير ذلك من أسئلة مفيدة ، ولنفي التهمة حديثا ، وفي سبيل التوازن في المعلومات وشمولية أبحاث المدخل تحدثت عن بعض الملامح الأساسية للتاريخ الأوربي في العصور الوسطى بشطريه الشرقي والغربي .

وفي أيامنا كثر عدد الكتب بالعربية المؤلفة والمترجمة حول تاريخ اوربا في العصور الوسطى بشكل عام أو حول الشطر الغربي ثم الشطر البيزنطي كل على حدة ،والمؤلفات العربية اعتمدت على الدراسات الأوربية الحديثة حول هذا الموضوع خاصة ما كتب بالانكليزية والفرنسية ، وأعني بهذا أنها نادرا ما عادت إلى الأصول والمصادر الأوربية القديمة لتعذر الحصول عليها ولعوائق اللغات والقدرة على التفرغ الطويل ، وفعلت أنا الشيء نفسه ، ففي مكتبي

اعداد كبيرة من افضل المؤلفات الانكليزية حول التاريخ الوسيط ، وكنت اهتممت بهذا الجانب من المعرفة التاريخية منذ أن كنت طالبا في لندن ، لأن رسالة الدكتوراه التي أعددتها ارتبطت بشكل وثيق بالتاريخ البيزنطي ، ولتمركز اهتماماتي منذ ذلك الحين حول تاريخ الحروب الصليبية ، وحدث أثناء اعارتي للتدريس في جامعة محمد ابن عبد الله في فاس أن توليت تدريس تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، وكنت انذاك قد أعددت أملية جامعية حول هذا الموضوع .

وافدت الآن من هذه الأملية ، وصحيح أنني قبل أن اعدها وبعده قرأت عددا كبيرا من الكتب حول التاريخ الوسيط إلا أنني اعتمدت في عملي على عدد مركز من الكتب تقدمها ما كتبه المؤرخ هنري بيرين حول التاريخ السياسي الوسيط وحول التاريخ الاقتصادي ثم كتابه « محمد وشارلمان »، ومع هنري بيرين استفدت إلى أبعد الحدود مما كتبه المؤرخ سدني بينتر ، ومن أبحاث تاريخ كمبرج عن العصور الوسطى سياسيا واقتصاديا ، وبالنسبة لهذا الكتاب العملاق راجعت بشكل مكثف أبحاث الجزء الرابع في طبعته الجديدة لأنه أوقف على تاريخ بيزنطة ، ولأن الاستاذة هسي أشرفت عليه ، ولهذه العالمة المؤرخة العديد من الكتب والأبحاث حول التاريخ البيزنطي ، ومن افضل اعمالها ترجمتها لكتاب اوسترو غورسكي حول تاريخ بيزنطة ، فهذا الكتاب معدود بين أفضل ما كتب حول تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وعرفت الاستاذة هسي عن قرب ، لأنها كانت عضوا في لجنة الحكم على اطروحتي للدكتوراه ، ومع كتابات الاستاذة هسي وترجماتها عدت إلى ما كتبه المؤرخ المختص ببيزنطة وأعني هنا فازلييف ، ولفازلييف كتاب عن العلاقات العربية البيزنطية نقل إلى العربية باسم « العرب والروم » وهو ما يزال يعد من الأصول الممتازة في بابه .

ومع أن اعتمادي ـ كما سلف وقلت ـ جاء على ماصدر بالانكليزية وعلى ما ترجم إليها من أصول خاصة كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، فإنني حصلت على بعض الفوائد من المؤلفات العربية على الأخص ما كتبه الاستاذ الجليل المؤرخ سعيد عبد الفتاح

عاشور ، وأملي كبير أن يفي الملخص الذي قدمته بالغرض .

ومن هذا الملخص نعرف قصة انتشار المسيحية في بعض الأقطار الأوربية المتوسطية ، وأن جل أوربا كانت شعوبه عندما قام الاسلام وثنية ، وعلى هذا كانت أوربا مهيأة لتلقي رسالة التوحيد ، وأية سعادة كانت ستنالها هذه الشعوب لو نجحت المشاريع العربية في فتح القسطنطينية ويوم بواتيه ، ومع أنه لامكان لكلمة « لو » بالتاريخ ، لاشك لدي أن البشرية كانت وحضارتها ستسعد وستختصر الوقت وتختزل الزمان ، ولا ستحال حينها قيام ما أطلق عليه اسم الحروب الصليبية التي ما تزال مستعرة حتى يوم الناس هذا ، وأعتقد أنها ستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأوقفت فصول الباب الثاني على دراسة موجزة وموجهة حول مراحل تاريخ الحروب الصليبية ، فقد رفضت منذ زمن مديد ما اعتاد عليه المؤرخون الأوربيون لدى بحثهم في تاريخ هذه الحروب ، فهؤلاء جعلوا ـ في الغالب ـ احداث هذه الحروب جزءا ـ يكاد أن يكون كاملا ـ من تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ونحن نختلف مع الأوربيين حول هذه القضية ، فهناك أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة لتفجر احداث الغزو الصليبي ، ولكن وقائع هذه الحروب قد قامت على أرض الشام العربية ، وانتهت على هذه الأرض بالذات بالنصر العربي والهزيمة الأوربية ، وجوهر القضية هنا ليس في كون أن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، لكن بالبحث عن الحقيقة بشكل علمي ومنطقي ، وفي تاريخ الحروب الصليبية قد تكون الأسباب الأوربية لتفجر هذه الحروب هامة غير أن الأهم هو معرفة أسباب اخفاق العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم إلا بعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الأوروبيون تاريخ الحروب الصليبية إلى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا أن هؤلاء الباحثين انفسهم ارخوا لما قام به الصليبيون في المانيا أو فرنسا أو بلغاريا أو الامبراطورية البيزنطية في إطار التاريخ

الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ثم في الاطار الأوروبي العام.

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلاد الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم إغفال الشأن الأوروبي . ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

(أ)الطور الأول ، وقد ارتبط بقيام هذه الحروب وعمليات الاحتلال حتى وصل التيار الى مداه الأقصى وكان ذلك أمام أسوار حلب سنة٥١٨ هـ/١١٢٤م ومن ثم انعكس .

(ب)الطور الثاني ،وقد ارتبط بحرب التحرير والاسترداد ، ومرت هذه الحرب بأربع مراحل ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن الوطن العربي في المشرق تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها . وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة واستغلال الامكانيات وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ومرحلة حلب ومرحلة دمشق ومرحلة القاهرة .

ـ في مرحلة الموصل تمت الحيلولة دون سقوط حلب ، وتحول موقف العرب من الدفاع إلى الهجوم .وكان أبرز إنجازات هذه المرحلة تحرير الرها سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، وذلك تحت لواء عماد الدين زنكي .

وفي مرحلة حلب استلم نور الدين محمود بن زنكي لواء القيادة فنشط في الشام نشاطا كبيرا ووحد حلب مع دمشق ثم مد الوحدة إلى مصر واعد العدة لتحرير القدس وإزالة الوجود الصليبي نهائيا . وتولى صلاح الدين الأيوبي القيادة في مرحلة دمشق بعد وفاة نور الدين بشكل مفاجيء عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م ، وفي ظل قيادة صلاح الدين تلقى الكيان الصليبي أقسى ضربة نالها في تاريخه يوم حطين

سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وبعد حطين جرى تحرير القدس مع أجزاء واسعة من المناطق المحتلة .

وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الأيوبية العظمى ، ومنها قاد كل من خلفاء صلاح الدين من الايوبيين اولا ثم من المماليك أعمال التحرير فصفوا الوجود الصليبي نهائيا .

إن أبرز وقائع هذين الطورين هو ما عالجته في الباب الثاني ، وجاء جل اعتمادي على الموادةالتي حوتها موسوعتنا مع مصادر أخرى اضافية ، ومررت ببعض الحوادث بشكل عابر ، غير أنني وقفت مطولا عند صلاح الدين ومعركة حطين ، فهنا جوهر النصر العربي ولب القضية التي ربحناها عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، وقيما واخلاقا فيها الكثير من الشمائل النبوية والمثالية الاسلامية ، فقد تربح الهمجية معركة وتسفك دما ، لكن الخلود للشمائل المحمدية التي احتذاها صلاح الدين يوم تحرير القدس ، وكما سيظل هذا اليوم صفحة مشرقة ممجدة لدى كل انسان متحضر سيبقى ما صنعه الفرنجة قبل ذلك بقرابة قرن ، يوم اجتاحوا القدس ، وصمة عار في جبين التاريخ الأوربي الوسيط .

وبعد صلاح الدين وفي ظل حكم الدول الأيوبية ، تعطلت مسيرة التحرير إلى حد بعيد ، وفقط استؤنفت بشكل فعال بعد هزيمة حملة لويس التاسع وتاسيس السلطنة المملوكية ، لذلك استحقت أعمال التصفية للوجود الصليبي في ظل المماليك بعض العناية مع أن موسوعتنا ليس فيها مواداساسية عما حدث بعد ما يعرف بالحملة الرابعة ؛ وسبب هذا أنني لم أستطع بعد الحصول على ما يكفي من مصادر غير عربية حول وقائع ما يعرف باسم الحملة الخامسة ثم الحملة السادسة ، كما وهناك مصادر عربية اساسية غير منشورة أسعى بشكل حثيث للحصول على نسخ مصورة عنها ، وعندها بأذن الله سأكمل مشروع هذه الموسوعة .

وللحروب الصليبية مالا يحصى من الدروس ،وسيبقى على رأس هذه الدروس أن الداء القاتل للأمة العربية هو التمزق ، فالتمزق

ترافق دوما مع الفتن وفي الفتن القي بأس الأمة بين صفوفها فانهكت نفسها بنفسها واستضعفها عدوها فسعى إلى افتراسها وابادتها ، فضلا عن الاستهانة بها ، والدواء كمن دوما في الوحدة القائمة على ماجاء في دين التوحيد وفي الشمائل المحمدية ، فالنبي المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام كان غيريا لم يعرف الأنانية ، اثر رضى الله ومصلحة الأمة على اي شيء آخر ، وكانت السلطة لديه صلى الله عليه وسلم احدى الوسائل لتطبيق الشريعة واسعاد بني البشر ، ولم تكن طريقا لملك يورث أو لاستبداد واستعباد وشهرة ذائعة .

لي أمل كبير في أن أكمل مشروع هذه الموسوعة وان يستفيد منها كل عربي ومسلم وان تلقى محاولتي لتفسير مراحل الحروب الصليبية العناية الكافية إن نقدا وإن تطويرا والله الموفق إلى السداد،وله الحمد والمنة،والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم .

دمشق الشام

١٧ ـ رجب الفرد ١٤١٣ ١٠ ـ كانون الثاني ١٩٩٣

سهيل زكار